إسهامات متصوفة المغرب الأوسط العلمية -ابن قنفذ والثعالبي نموذجا -

The Scientific Contributions of Middle Maghreb Sufis -Ibn Qunfudh and Al-Tha'labi as model-

أقدوش ماضوي[1]، بن بوزيان عبدالرحمان [2]

[1] مخبر البحوث والدراسات الاجتماعية-جامعة 20أوت1955/سكيكدة m.agdouche@univ-skikda.dz

[2] مخبر الدراسات الحضارية والفكرية/جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان،

abderrahmane.benbouziane@univ-tlemcen.dz

تاريخ الإرسال: 2022-09-30 **تاريخ القبول:** 2023-06-15 **تاريخ النشر:** 2023-06-16

ملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع إسهامات متصوفة المغرب الأوسط العلمية مع اختيار ابن قنفذ القسنطيني وعبد الرحمان الثعالبي نموذجا، حيث يستعرض البحث التصوف في المغرب الأوسط وعوامل انتشاره خلال العهد الزياني، ثم التطرق إلى الإسهامات العلمية للعلماء المتصوفة متمثلة في نموذج ابن قنفذ في الشرق، والثعالبي في الوسط.

الكلمات المفتاحية: التصوف؛ المغرب الأوسط؛ العلماء؛ ابن قنفذ؛ الثعالبي.

Abstract:

This study examines the scientific contributions of Sufi scholars in the Middle Maghreb, with Ibn Qunfudh Al-Qusanṭīnī and Abdul Rahman Al-Tha'alibi chosen as modal. The research explores Sufism in the Middle Maghreb and the factors contributing to its spread during the Zayyanid dynasty. It then delves into the scientific contributions of Sufi scholars, represented by Ibn Qunfudh in the East and Al-Tha'alibi in the Middle

Keywords: Sufism; Middle Maghreb; Scholars; Ibn qanfudh ; Al-Tha'alibi

المؤلف المرسل: أقدوش ماضوي، الإيميل: m.agdouche@univ-skikda.dz

1- مقدمة:

انتقل التصوف من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب في صورة الزهد والتبتل والإعراض عن الدنيا، ثم تحول هذا الزهد إلى تصوف وطريقة سلوكية لها مريدين وأتباع، واتضحت معالمه في بلاد المغرب الأوسط مع قدوم أبي مدين شعيب خلال القرن السادس للهجرة الموافق للثاني عشر للميلاد، ثم أخذ في التوسع والانتشار خلال

العهد الموحدي، وازداد انتشارا وتجذرا بين الخاصة والعامة خلال العهد الزياني؛ فظهر الفقهاء المتصوفة والعلماء المتصوفة.

اتسعت دائرة التصوف ومعها برزت تيارات وطرق صوفية متعددة، ومعها برز مشايخ وعلماء اعتنقوا التصوف كطريقة سلوكية، فعرفت ساحة المغرب الأوسط علماء متصوفة ساهموا في الحركة العلمية، فلم يتوقفوا عند تدريس الكتب المشرقية، بل كان لهم إنتاج تأليفي في العلوم العقلية والنقلية، وأخذ التصوف حيزا مهما من هذا الإنتاج. ومن بين هؤلاء العلماء المتصوفة الذين كانت لهم اسهامات علمية في علم التصوف وغيره من العلوم الأخرى نجد كل من ابن قنفذ القسنطيني وعبد الرحمان الثعالبي، وذلك ما سنحاول الوقوف عليه من خلال تحديد حجم الإسهامات العلمية لكل من ابن قنفذ القسنطيني والثعالبي في مختلف أنواع العلوم خاصة في علم التصوف.

2–علم التصوف في المغرب الأوسط وعوامل انتشاره:

1.2– علم التصوف في بلاد المغرب:

يعتبر علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملة الإسلامية (ابن.خلدون، 2001، صفحة 553)، وأصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يُقبِل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة (السحمراني، 2015 ، صفحة 22). ويطلق علم التصوف أيضا على علم الباطن أو علم الحقيقة، مع الإلمام بعلم الظاهر وهو علم الشريعة الإسلامية (فيلالي ع.، 2017، صفحة 129).

وقد تسلل التصوف الى بلاد المغرب من خلال الزهاد والعباد، ولكن لم يعرف كعلم وممارسة إلا في الزمن الموحدي، ثم شهد توسعا وتجذرا وانتشارا خلال الحقبة التي تلت العهد الموحدي، خاصة مع تشجيع السلطة الحاكمة للتوجه الصوفي وتقريب أقطابه، بل لجأ بعض السلاطين إلى الاستعانة بهم والتبرك بزيارتهم، وذلك قصد كسب الرعية، وهذا ما حدى بالكثير من الفقهاء إلى اعتناق التصوف، فبرز ما يعرف بالفقهاء المتصوفة، فقدموا خدمات جليلة للتيار الصوفي سواء من ناحية السلوك والرياضة الروحية أم

من ناحية الإنتاج العلمي (مفتاح، 2014، الصفحات 62-100). وذلك في بلاد المغرب عموما وفي المغرب الأوسط خصوصا، إذ عرف هذا الأخير في العهد الزياني نمو ظاهرة الفقهاء والعلماء المتصوفة الذين تركوا إرثا علميا ثريا في ميدان التصوف والتربية والسلوك (بوشقيف، 2010 - 2011 م، صفحة 244).

2.2- التصوف في المغرب الأوسط :

كانت البدايات الأولى للتصوف في المغرب الأوسط تمثل تجربة ذاتية روحية لسالكي هذا الطريق، واتجاها فكريا يصبو إلى تمتين العلائق بين العبد وخالقه وذلك من خلال الإعراض عن مباهج الحياة والزهد في الدنيا والإقبال بالمقابل على التبتل والذكر والعبادة، والانقطاع إلى الله تعالى عن طريق الخلوات والانعزال عن الناس (التنبكتي، 2011، صفحة 191).

بعد هذه البدايات أخذ التصوف ينتشر في الأوساط الشعبية عند العامة والخاصة، فظهر التصوف السني المختلط بالفقه في الكثير من المناطق كتلمسان وقسنطينة وغيرها، وظهر التصوف الفلسفي عند النخبة كما هو الحال في بجاية (قويسم، 2013-2014، صفحة 261). ثم أخذت الطرق الصوفية تنتشر وذلك باشتهار رجالها المؤسسين لها في المشرق والمغرب، كالقادرية المنسوبة إلى الصوفي عبد القادر الجيلاني المتوفي عام 561 هـ / 1166 م، والشاذلية التي تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي الذي توفي سنة 656 هـ / 1285 م، والنقشبندية التي تنسب إلى الشيخ خواجة بهاء الدين نقشبند المتوفي عام 791 هـ / 1389 م. ومعلوم أن معظم الطرق الصوفية المنتشرة بالمغرب الإسلامي يرجع سندها إلى الطرق الثلاثة السالفة الذكر، وهناك من الباحثين من يرى بأن هذه الطرق تعود إلى طريقة واحدة منسوبة إلى أحمد الرفاعي المتوفي سنة 578 هـ / 1183 م وهي الطريقة الرفاعية (هويدي، 1965، الصفحات 362-364).

وبالجملة يمكن القول أن الحركة الصوفية ظهرت للعيان وقوي نشاطها بالمغرب الأوسط منذ أن حل الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني ببجاية وإقامته بها في القرن السادس الهجري. (الجيلالي، 1994، صفحة 71)

تميز التصوف في المغرب الأوسط في بداياته بالطابع المالكي، إذ عمل على التوفيق ما بين الشريعة والحقيقة، فظهر الفقهاء المتصوفة والمتصوفة الفقهاء، وكان شعارهم ما أثر عن الإمام مالك: " من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق " (بونابي، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14 - 15 الميلاديين ، 2008-2009، صفحة 688). ويقول الفقيه أحمد بن قنفذ القسنطيني داعيا إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة: " فإن الأصل البدار إلى الهداية بكتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه السلام، والتعاون على ذلك، على يد من شاء الله تعالى من الأشياخ المهتدين المعلمين " (القسنطيني، 1965، صفحة 61).

3- عوامل انتشار التصوف بالمغرب الأوسط:

1.3- العوامل السياسية:

تعددت العوامل والأسباب السياسية التي أدت إلى انتشار ظاهرة التصوف في بلاد المغرب الأوسط نذكر منها:

_ انهيار الدولة الموحدية: أعقب سقوط الدولة الموحدية تغير أوضاع ساكنة المغرب الأوسط، إذ ساد الاضطراب والفوضى نواحي عدة من حياة الناس، وتدهورت أوضاع البلاد، وطفت الصراعات إلى السطح، فوجد الناس ملاذهم عند الصوفية، وذلك من أجل حماية الأنفس والأموال، ذلك أن المتصوفة كان لهم وزن اجتماعي وثقل سلطوي في أوساط المجتمع وفي دواليب السلطة، فاستطاعوا القيام بدور الدولة في حماية الأنفس والممتلكات وتأمين المسالك والطرقات، فتلاشت بذلك سلطة الدولة أمام سلطة المتصوفة (القاسمي، 2007، صفحة 28). وأصبح التيار الصوفي بهذه المكانة داخل المجتمع يحسب له ألف حساب من طرف الدولة، ومن جهة أخري يعتبر مصدرا لقوتها، وذلك لقدرته على استمالة الناس

وكسبهم، فرجال التصوف والأولياء الصالحون لهم سلطة روحية تفوق سلطة الدولة في الكثير من المواطن (عباس، 2016، صفحة 55).

-سقوط بلاد الأندلس: كان لانهيار الدولة الموحدية وانقسام بلاد المغرب إلى دويلات ثلاث؛ الحفصية في المغرب الأدنى والزيانية في المغرب الأوسط والمرينية في المغرب الأقصى، والوهن السياسي مع التمزق والتشتت الذي أصاب شبه الجزيرة الإيبيرية مع نشاط لحروب الاسترداد ،كان لكل هذا دور في التعجيل بسقوط الأندلس، ونتج عن هذا السقوط أمران: الأول الغزو الإسباني لأغلب سواحل بلاد المغرب الإسلامي ومنها سواحل المغرب الأوسط، وهو ما استوجب مواجهة هذا الغزو ومقاومته، وقد تحمل الصوفية مسؤولية رفع لواء الجهاد بعد وهن الدولة من خلال إنشاء الزوايا والربط على طول الشريط الساحلي خاصة الغربي منه، ويذكر لنا التاريخ أن زاوية الشيخ إبراهيم التازي بوهران كانت تحوي صنوف من الذخائر والأسلحة مخزنة فيها (القاسمي، 2007، صفحة 29). أما الأمر الثاني: فيتمثل في نزوح العديد من رجال التصوف الأندلسيين إلى المغرب الأوسط، وكانت وجهة الكثير منهم نحو بجاية وتلمسان، فأعطوا دفعة قوية للتيار الصوفي وظهرت جماعات صوفية متعددة في المغرب الأوسط (الجيلالي، 1994، صفحة 249).

2.3- العوامل الاجتماعية:

ساهمت العديد من العوامل الاجتماعية في انتشار التيار الصوفي وتوسعه، وتغلغله في مفاصل المجتمع الوسيطي المغرب أوسطي، ومن أهم هذه العوامل والأسباب نذكر:

- تقهقر القيم والمبادئ لدى العامة والخاصة، فاختلت موازين الأخلاق، وفشت سلوكيات الانحراف عن مبادئ الدين القويم، فنهض الصوفية لتغيير المنكر وسد الاختلالات الواقعة، وتفرقوا في أرجاء البلاد للإصلاح، مما أدى إلى انتشار مذهبهم (هويدي، 1965، الصفحات 356-361).

– النزوع إلى حياة الترف والبذخ والترفه عند فئام من المجتمع، وذلك نتيجة الاستغناء والتربح على حساب الطبقات الشعبية الكادحة من خلال اغتصاب قطاع واسع من الأراضي، سواء بالاستيلاء عليها أو مصادرتها من طرف السلطة، أو تحبيسها هروبا من الضرائب المفروضة، والتي أثقلت كاهلهم (عباس، 2016، صفحة 56). هذا التفاوت الطبقي الصارخ دفع الكثير من الفقراء والمحرومين إلى الانضواء تحت عباءة الصوفية، والتي وجدت فيها الملاذ الآمن لتلبية حاجياتها المادية والروحية، وهو ما جعل من التيار الصوفي يتمدد أكثر فأكثر (القاسمي، 2007، صفحة 30).

3.3–العوامل الفكرية:

كان للعوامل الفكرية أثر بارز ومباشر في انتشار التيار التصوفي وتغلغله في الأوساط الشعبية بمختلف فئاته، ومن جملة هذه العوامل:

– ظهور عقيدة المرابط وانتشار الزوايا بكثرة، وافتتاح عهد التصوف العملي الذي اكتسح مختلف الشرائح الشعبية (سعدالله أ.، 1998، صفحة 48)، بعدما كان التصوف الفلسفي المقتصر على فئة أهل العلم والنخبة هو السائد. (عباس، 2016، صفحة 56)

– تواجد الكثير من علماء التيار الصوفي في ميدان الدعوة، فتصدروا المجالس وسعوا جاهدين لنشر طرقهم الصوفية، واستغلوا مكانتهم العلمية والروحية بين الناس لتوسيع انتشارهم أكثر، ومن أمثلة هؤلاء نجد أبو يعزى وأبو مدين الغوث وابن مسرة والحسن بن علي المسيلي وأحمد بن محمد المغراوي المعروف بابن زاغوا وغيرهم (القاسمي، 2007، صفحة 26).

– تأثير التصوف المشرقي في العلماء المغاربة: حيث بقي ظل المتصوفة المشارقة يتبع في الغالب علماء المغرب ومنهم علماء المغرب الأوسط، فكثيرا ما كان يُعتمد في التدريس على مؤلفات المشارقة في الزهد والتصوف، وكثير من العلماء الذين كانت لهم رحلات لبلاد المشرق طلبا للعلم عادوا محمّلين بصنوف من العلم ومنها التصوف، وقد أحصى الغبريني في عنوان الدراية وابن مريم في البستان عددا كبيرا منهم، ونذكر هنا على سبيل المثال: عبد الواحد المجاصي الشهير بالبكاء، ابن مرزوق الجد، محمد بن عمر

الهواري، محمد بن يوسف السنوسي، فهؤلاء وغيرهم كان للتأثير المشرقي نسبة كبيرة في الدفع بهم إلى نشر التصوف في المغرب الأوسط (سعدالله أ.، 1998، صفحة 49).

4-نماذج لأعلام التصوف في المغرب الأوسط وإسهاماتهم العلمية:

عرف المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط بروز العديد من العلماء أقطاب التصوف، الذين زاوجوا بين المشيخة العلمية والمشيخة الصوفية، خاصة خلال القرن الثامن منه للهجرة إلى العاشر للهجرة، هذه المرحلة التي شهدت انتشارا واسعا للتصوف عند العامة والخاصة، فاعتنق الكثير من العلماء والفقهاء مذهب التصوف (بوداود، 2011، صفحة 58)، ولم يتوقف تصوفهم في سلوك ما يسلكه المريد والتزام النهج العملي للمتصوفة؛ بل تعدى الأمر لوضع كتب في التصوف والرياضات الروحية، فتركوا مؤلفات تخص التصوف، إضافة إلى تصانيف في سائر العلوم والفنون الأخرى، ومن جملة هؤلاء العلماء المتصوفة الذين كانت لهم اسهامات علمية في باب التصوف وغيره من صنوف العلوم نذكر:

1.4- أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الشهير بابن القنفذ القسنطيني (ت810هـ/ 1407م):

1.1.4-مولده ونشأته:

قبل أن نتطرق إلى التعريف بحياة أبو العباس أحمد بن قنفذ، لابأس من الإشارة إلى معنى وأصل اسم عائلة ابن القنفذ والذي اشتهرت به هذه الأسرة. فالظاهر أن اسم ابن قنفذ ينحدر من بطن بني قنفذ وهم من قبيلة " أشجع " العدنانية التي كان يسمى أهلها ببني قنفذ بن حلاوة بن سبيع بن أشجع، أو هو اسم لجد له لُقِّبَ بهذا اللقب لوجود ابن قبله (قنفذ، 1968، صفحة 402).

أما شهرته بابن الخطيب، فالسبب يرجع إلى أن والده تولى الخطابة، وكذا جده كان خطيبا في المسجد مدة خمسين سنة وقيل ستين سنة (نويهض، 2017، صفحة 268).

ولد أبو العباس أحمد الخطيب بقسنطينة سنة (740 هـ /1340 م) في بيت علم، إذ توارث أجداده العلم والأدب والخطابة، وقد أشار ابن قنفذ إلى تاريخ ولادته بشعر كتبه قال فيه:

مَضَتْ سِتُونَ عَامًا مِنْ وُجُودِي ۞ وَمَا أَمْسَكْتُ عَنْ لَعِب وَلَهْوِ

وَقَدْ أَصْبَحْتُ يَوْمَ حُلُولِ إِحْدَى ۞ وَثَامِنَة عَلَى كَسَل وَسَهْوِ(قنفذ، 1968، الصفحات 25-53)

كان والده حسن بن علي (ت 750هـ/1349 م) فقيها وأديبا صوفيا، ساهم في النشاط العلمي والفكري لحاضرة قسنطينة خلال القرن الثامن الهجري الموافق للرابع عشر الميلادي (قنفذ، 1968، الصفحات 41-42).

أخذ أبو العباس أحمد الخطيب تعليمه الأول على يد والده بقسنطينة ولكن الوالد التحق بالرفيق الأعلى وترك ابنه طفلا لم يتجاوز العشر سنوات، فتكفل به جده من أمه يوسف الملاري (ت 764 هـ/1363 م) صاحب زاوية الملارة، القطب الصوفي خريج مدرسة أبي مدين الغوث (فيلالي ع.، 2017، صفحة 155). بعدما نهل العلوم من جده يوسف الملاري وكذا من بعض شيوخ قسنطينة منهم الفقيه حسن بن خلف بن باديس (ت 784 هـ/ 1382 م)، والحافظ حسن بن أبي القاسم بن باديس (ت 787 هـ / 1385 م)؛ (قنفذ، 1968، صفحة 54) رحل إلى تلمسان والتقى بعلمائها، ووقف بالعباد عند زاوية أبي مدين ثم أكمل طريقه إلى فاس فأخذ نصيبا من العلوم في جامع القرويين ومكث هناك ما يزيد عن ثماني عشرة سنة، واحتك هناك برجال العلم والتصوف منهم أبو العباس أحمد بن قاسم القباب الفاسي المتوفي سنة (778هـ/ 1376 م) (التنبكتي، 2011، صفحة 85). ثم زار مراكش وآسفي وسلا ودكالة وغيرها حتى سنة (776 هـ / 1375م) حيث عاد إلى قسنطينة وتولى فيها خطط كالخطابة والإفتاء والقضاء وعكف على نشر العلم بالتدريس والتأليف. (التنبكتي، 2011، صفحة 85)

2.1.4-مؤلفاته:

وكما عرف ابن الخطيب بكثرة مشايخه، فقد عرف عنه أيضا كثرة الإنتاج العلمي في العلوم النقلية والعقلية، وقد أورد لنا في آخر كتابه شرف الطالب في أسنى المطالب قائمة بها، باستثناء ثلاثة كتب لم يذكرها فربما ألفها بعد شرف الطالب، هذا الأخير الذي ألفه سنة 684هـ / 1285م، ومؤلفاته تزيد عن الثلاثين مصنفا في شتى أنواع العلوم. نذكر من جملة الكتب التي تركها ما يلي: (إبراهيم، 2000، صفحة 70)

أولا: التآليف الموجودة:

– شرف الطالب في أسنى المطالب " وهو شرح للمنظومة المسماة "القصيدة الغزلية في ألقاب الحديث" لأبي العباس أحمد بن فرج الإشبيلي، وهي في مصطلح الحديث

– "الوفيات" وهو ذيل جعله لكتابه السابق، ويضم تراجم كثيرة للعلماء، مرتبة على القرون وعلى تواريخ وفياتهم، لكن التراجم قصيرة، وفي كثير من الأحيان لا تفي بالغرض.

– " الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية "وتسمية الفارسية جاءت نسبة للأمير الحفصي الذي ألفه ابن قنفذ باسمه وأهداه له، وهو أبو فارس عبد العزيز

– " تحفة الوالد في اختصاص الشرف من قبل الوالد".

– " تسهيل المطالب في تعديل الكواكب " ويسمى أحيانا بتيسير المطالب. ذكر ابن قنفذ في آخر شرف المطالب في القائمة الواردة هناك أنه لم يهتد أحد إلى مثله من المتقدمين

– " تحصيل المناقل وتكميل المآرب " وهو شرح لكتابه تسهيل المطالب

– شرح منظومة ابن أبي الرجال المسماة " المنظومة الحسابية في القضايا النجومية

– "شرح الأرجوزة التلمسانية في الفرائض."

- "طبقات علماء قسنطينة."

- " أنس الفقير وعز الحقير "الذي جعله سجلا لرحلاته لمناطق مختلفة من بلاد المغرب (749 - 778 هـ / 1357- 1376 م)وهو في التصوف والمناقب.

ثانيا: التآليف المفقودة: هناك أكثر من عشرين كتاب لابن قنفذ هي في حكم المفقود منها:

- وسيلة الإسلام بالنبي عليه السلام.
- بقية الفارض من الحساب والفرائض.
- تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب.
- حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب.
- بسط الرموز في شرح الخزرجي.
- أنس الحبيب عن عجز الطبيب.
- شرح الثقات في علم الأوقات.
- هداية السالك في بيان ألفية بن مالك.
- تقريب الدلالة في شرح الرسالة "في أربعة أسفار."
- معاونة الرائض في مبادئ الفرائض.
- .تلخيص العمل في شرح الجمل "في المنطق.
- أنوار السعادة في أصول العبادة.
- شرح لقوله عليه السلام بني الإسلام على خمس" وفي كل قاعدة من الخمس أربعون حديثا وأربعون مسألة.
- ."تسهيل عبارة في تعديل السيارة "واشتمل أربعين بابا وستين فصلا".
- الابراهيمية في مبادئ العربية.

- القنفذية في ابطال الدلالة الفلكية.

والملاحظ من خلال عناوين مؤلفات ابن قنفذ هو التنوع من حيث الفنون التي تناولها بين الفقه والتوحيد والسيرة والفلك والطب والحساب والتصوف، هذا ومن جانب آخر فانه أبدع في العلوم العقلية، خاصة في علم الحساب والفلك، بينما نجد أن مؤلفاته في العلوم الإنسانية قلد فيها من سبقه وسار مسيرة الأولين. هذا وقد توفي أبو العباس ابن الخطيب سنة (810هـ/1407م) مخلفا وراءه تركة علمية لازال البحث فيها حقلا خصبا إلى اليوم (فيلالي ع.، 2017، صفحة 158).

2.4-عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي:

1.2.4-مولده ونشأته ورحلاته:

ولد عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجعفري الجزائري المكنّى بأبي زيد (مخلوف، 2003، صفحة 382) سنة (785هـ/1384م) وقيل سنة (786هـ/1385م) بواد "يسر" على بعد 86 كلم بالجنوب الشرقي من الجزائر (فركوس، 2019، صفحة 230). أما نشأته فالملاحظ أن معظم من ترجم للثعالبي لم يتطرق لشيء من نشأته، غير أنه كغيره من الكثير من العلماء يكون قد نشأ في بيت علم وصلاح، في بيئة كثر فيها العلماء والفقهاء، وهو ما ساهم في بناء شخصيته العلمية، ولا أدَلَّ من ذلك كثرة مصنفاته المتنوعة بين الفقه والتفسير والحديث والقراءات والتصوف وغيرها (زايدي، 2018، صفحة 17).

بعدما تلقى الثعالبي مبادئ العلم الأولى على يد والده، انتقل به والده إلى مدينة الجزائر، ثم أخذ به نحو بجاية وذلك سنة 802هـ/1399م ومكث بها سبع سنوات يأخذ عن أصحاب عبد الرحمان الوغليسي حتى خرج منها سنة 809هـ/1406م (الجيلالي، 1994، صفحة 272). ثم قصد بها البلاد التونسية أين مكث بها ثماني سنوات جلس خلالها إلى علماء من أمثال البرزلي وابن خلفة الأبي وعيسى

الغبريني وغيرهم وأجازوه فيما هو أهل أن يجاز (نويهض، 2017، صفحة 560). وفي سنة817هـ/1414م توجه إلى مصر، حيث استقبل بحفاوة وأقيمت له زاوية هناك، وما تزال تلك الزاوية وقفا محبسا على الثعالبي إلى يومنا هذا. ومن هناك كانت وجهته نحو البقاع المقدسة حيث أدى فريضة الحج، وكان له فيها لقاء مع ثلة من علماء الحجاز أين أخذ عنهم وأجازوه في فنون شتى، ثم عاد أدراجه إلى مصر، ومنها إلى البلاد التونسية في عام 819هـ/1416م، ومن تونس دخل إلى الجزائر التي غاب عنها قرابة العشرين سنة قضاها في درب طلب المعارف والنهل من معينها (عيساوي، 2021، صفحة 171). وفي وطنه استقر وتفرغ للعبادة وخدمة العلم وطلابه وتحبير المؤلفات في شتى صنوف العلوم إلى أن وافته المنية (كعبي، 2014، صفحة 18).

2.2.4–شيوخه وتلامذته:

1.2.2.4–شيوخه:

تلقى الإمام الثعالبي العلم على يد عدد كبير من المشايخ والعلماء نذكر على سبيل المثال منهم: علي بن عثمان المنقلاتي البجائي الزواوي، ومحمد بن خلفة بن عمر التونسي المعروف بالأبي، والإمام أبو القاسم البرزلي، وعبد الواحد الغرياني، وأبو القاسم العبدوسي، وولي الدين العراقي، ومحمد بن الخطيب بن محمد بن مرزوق المعرف بالحفيد وغيرهم كثير (مخلوف، 2003، صفحة 382).

2.2.2.4–تلامذته:

كانت مجالس الإمام الثعالبي مَحَجًّا للطلبة والعلماء، وقد تخرج على يديه عدد كبير من المشايخ والأعلام الفضلاء نذكر منهم: الإمام زروق أحمد بن أحمد بن محمد البرنسي، ومحمد بن محمد بن أحمد ولد ابن مرزوق العجيسي المعروف بالكفيف، ومحمد بن يوسف السنوسي، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي، (القاسمي، 2007، صفحة 20) يقول صاحب نيل الإبتهاج: " أحذ عنه جماعة كالشيخ العالم محمد بن محمد بن مرزوق الكفيف، والإمام السنوسي وأخيه لأمه علي التالوني، والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي" (التنبكتي، 2011، صفحة 253).

3.2.2.4–وفاته:

توفي الشيخ الفقيه الأديب الصوفي الإمام عبد الرحمان الثعالبي صبيحة يوم الجمعة 23 من رمضان سنة 875هـ/15مارس 1479م ودفن بجبانة الطلبة في مدينة الجزائر (الجيلالي، 1994، صفحة 275).

3.2.4–مؤلفاته:

يعتبر الثعالبي أكثر علماء بلده ومتصوفيه إنتاجا، وذلك راجع لتبحره في مختلف صنوف المعرفة، إضافة إلى اعتزاله لسواد الناس وملازمته تدريس شتى فنون العلم المتداولة بين علماء ذلك العصر، وقد ترك ما يربو على التسعين مؤلفا، لا يزال أكثرها مخطوطا يعيش في السودان والمكتبات الخاصة والعامة بالجزائر وتونس والمغرب وغيرها من المكتبات (الجيلالي، 1994، صفحة 275). ومن جملة مؤلفاته نذكر: (السخاوي، د.ت، صفحة 152)

- الجواهر الحسان في تفسير القرآن. ويقع في عدة أجزاء، وهو من أعظم كتبه وأوسعها انتشارا وأكثرها نفعا.
- تحفة الإخوان في إعراب آي القرآن.
- نفائس المرجان في قصص القرآن.
- جامع الأمهات في أحكام العبادات.
- شرح مختصر خليل بن إسحاق المالكي.
- الإرشاد في مصالح العباد.
- جامع الهمم في أخبار الأمم.
- جامع الخيرات.

أما في التصوف فله مجموعة من المصنفات منها:

- الأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة.
- الدر الفائق المشتمل على أنواع الخيرات في الأذكار والدعوات.
- قطب العارفين.
- الأنوار ومصباح الظلام.
- العقد النفيس.
- كتاب اليواقيت الحسان.
- كتاب رياض الصالحين وتحفة المتقين.
- الإرشاد لما فيه من مصالح العباد.
- كتاب الرؤية المباركة.
- كتاب النصائح.
- العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة.

5- نظرات في تصوف ابن قنفذ والثعالبي:

1.5- ابن قنفذ والتصوف المديني:

1.1.5-عصر ابن قنفذ:

يعد العصر الذي عاش فيه ابن قنفذ عصرا مزدهرا، إذ شهدت فيه العلوم تطورا وبلغت المعارف أوجها، وصاحب هذا النشاط الفكري والعلمي تنافسا بين لرعاية الثقافة بين الدويلات الثلاث التي تحكم بلاد المغرب الإسلامي في هذا العهد وهي الدولة المرينية في المغرب الأقصى والدولة الزيانية في المغرب الأوسط والدولة الحفصية في المغرب الأدنى (الصيد، 2015، صفحة 195).

في هذا الجو الثقافي العلمي المزدهر خرج الى الوجود نشأ ابن قنفذ الذي كانت بدايته التعليمية بحاضرة العلم في ذاك الزمان قسنطينة، ثم رحل الى المغرب وتونس لينهل من منابع العلم، فعاد بزاد معرفي موسوعي سمح له بالتأليف في شتى أنواع العلوم العقلية والنقلية واللسانية والاجتماعية.

2.1.5–تأثر مدرسة التصوف في قسنطينة بغيرها:

الملاحظ أن علماء المغرب الأوسط بصفة عامة كانت الزيارات متبادلة بينهم، وكان بعضهم يردُ على بعض، ويتناظرون في أمهات الكتب في شتى المجالات، ويقومون بالتدريس وإعطاء الاجازات... وبالرغم من اختلاف السلطة السياسية التي تنتمي اليها بعض حواضر المغرب الأوسط بين زيانية وحفصية، إلا أن المثاقفة لم ينقطع حبل وصالها بين مختلف مناطق مجال المغرب الأوسط، وفي ميادين عدة منها على الخصوص ميدان التصوف (التنبكتي، 2011، صفحة 460). فقد انفتحت حاضرة قسنطينة في ميدان التصوف على غيرها من المدن والحواضر، وعلى وجه الخصوص زاوية العباد بتلمسان، حيث اعتنقت طريقتها عن طريق يعقوب بن عمران البويوسفي (ت717هـ/1317م)، هذا الأخير كان تلميذا للشيخ مسعود بن عريف أحد أصحاب القطب الغوث أبي مدين (ت 594هـ)، فتأثر به يعقوب الملاري، حتى انه عندما عاد الى بلدة قسنطينة أسس الزاوية الملارية وذلك بعدما ورَّث له الشيخ مسعود الطريق المديني، وهذا في النصف الثاني من القرن السابع للهجرة الموافق للقرن الثالث عشر للميلاد (فيلالي ع.، 2012، صفحة 5).

والطريقة المدينة – نسبة لابي مدين شعيب – في مجال التصوف السني، انتقلت الى قسنطينة وشيوخها عن طريق بجاية التي أقام فيها أبو مدين ردحا من الزمن، فكان التلاميذ يتنقلوا إليها لنهل العلوم، والجلوس بين يدي المربين وسالكي طريق الرياضة الروحية من الزهاد والمتصوفة في مدينة بجاية، خاصة وان المدينتين تقعان تحت نفوذ حكم واحد هو الحكم الحفصي، وهذا ما يسهل عملية التنقل والتبادل المعرفي.

وقد رصد لنا كل من الغبريني وابن قنفذ جانب من المراسلات والاتصالات والزيارات التي كانت قائمة بين مشيخة قسنطينة وفضلائها وبين متصوفة وشيوخ بجاية (الغبريني، 1889، صفحة 26).

تأثر ابن قنفذ بالزاوية الملارية وبالطريقة المدينية الصوفية السنية التي كانت تسلكها، خاصة وان عائلته كانت على هذا النهج، فقد أشار ابن قنفذ الى مكانة والد جده يعقوب وجده يوسف بن يعقوب (ت764هـ/1360م) في الصوفية المدينية في قسنطينة، وارتباط أغلب صوفية قسنطينة وبجاية بطريقة ابي مدين شعيب بحكم أنه مكث نحو خمسة عشر سنة ببجاية، يُدرس هناك، فكان الطلبة يفدون من قسنطينة ومن زاوية ملارة للجلوس بين يدي الشيخ أبي مدين شعيب، ويعود الى العباد بتلمسان لزيارة ضريحه للتبرك به، حتى أن أبو العباس ابن مرزوق (ت741هـ/1341م) القائم على ضريح العباد أهدى للزاوية الملارية وأتباعها جزءا من عكاز أبي مدين اعترافا لهم بالانتماء والصلة الوثيقة بالطريقة المدينية (القسنطيني، 1965، صفحة 35).

فابن قنفذ بحكم انتمائه وعائلته للزاوية الملارية، إذ أنه حفيد الملاري يوسف بن يعقوب (ت764هـ/1763م) كان متأثرا بجده، سالكا لطريقه الصوفي والذي كان طريق أبي مدين شعيب لا غير (فيلالي ع.، 2012، صفحة 10). فقد كان كثير التردد على العباد في تلمسان في غدوه ورواحه ورحلاته المتعددة نحو سلا وفاس وأغمات ودكالت، ففي كل رحلة يقوم بها إلا وزار ضريح أبي مدين الغوث ووقف عليه متبركا به، متضرعا لله أمام هذا المقام، وذلك من شدة تأثره بالطريقة المدينية. ولهذا نجد ابن قنفذ يقول عن نفسه: "فلجأت الى قبر أبي مدين وركعن هناك ما قدر لي ثم قرأت جملة من القرآن، ثن أخذت في التسبيح والتهليل في نفسي، حتى رق قلبي واجتمع خاطري، فاستغفرت إليه وصليت على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قلت: يا سيدي أبا مدين نحن أضيافك، قد نزلنا بجوارك ولنا معك وسيلة عهد وسند متصل قريب غير منفصل، والغرض تسيير الإنتقال والحفظ في كل الأحوال" (القسنطيني، 1965، صفحة 51).

ومن أوضح الآثار الدالة على شغف ابن قنفذ بالصوفية المدينية أن أشار هو بنفسه إلى أن أهم الأسباب التي دفعته إلى تأليف كتابه "أنس الفقير وعز الحقير في رحلات التصوف كأبي مدين وأصحابه " هو شخصية أبي مدين الصوفية (القسنطيني، 1965، الصفحات 8-18).

2.5-الكرامة عند ابن قنفذ :

ازدهرت في عصر ابن قنفذ العلوم والأداب بمختلف صنوفها، وهيمنت الثقافة الدينية والروحية، حيث أصبح سلوك طريق التصوف مقصد للعامة والخاصة، فنتشر التصوف خلالها ونبغ رجال استفادوا من التراث الثقافي الذي خلقته الدولتان العظيمتان المرابطية والموحدية، حيث كانت الإنتاجات العلمية التي ظهرت في أواخر القرن الثامن إلى السنين الأولى من القرن التاسع الهجري لا تضاهي إنتاجات الحقبة السابقة (القسنطيني، 1965، صفحة 8).

وازداد التصوف انتشارا وظهورا خلال القرن الثامن والتاسع الهجريين، وذلك من خلال ظهور الكثير من الزوايا التي يرتادها المريدون، وكذا بروز طوائف عديدة في مجتمع المغرب عموما والمغرب الأوسط خصوصا، وفي هذا الصدد يقول جمال علال البختي: "وقد تكاثرت الزوايا في المغرب بعد ذلك انطلاقا من قرن الثامن الهجري حيث بنيت حولها المدارس واستقر فيها الطلبة والفقراء " (بختي، 2005، صفحة 46) فهذا العصر امتاز بانتشار الأفكار الصوفية وهيمنتها على العقول خاصة مع الضعف والوهن الذي أصاب دول بلاد المغرب والأندلس واستقواء النصارى ونشاط حروب الاسترداد، إذ جنح الكثير من العلماء إلى الزهد والتصوف والتبتل، سواء هروب من الفتن التي يعج بها واقعهم أو محاولة من البعض منهم بث الروح الدينية في نفوس المسلمين، وإيقاظ الهمم من أجل الدفاع عن الإسلام وصد الهجمات الصليبية التي تهدد أمن بلاد المغرب ومنها المغرب الأوسط وذلك بعدما ابتلعت معظم بلاد الأندلس (بختي، 2005، صفحة 46).

أما في زمن ابن قنفذ القسنطيني فقد كانت فكرة الكرامة قد ترسخت، الكرامة التي تأخذ مدلول "فعل خارق للعادة تظهر على يد عبد صالح في دينه متمسك بسنة الله في جميع أحواله من غير ذي التنبؤ" (بونابي، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14 - 15 الميلاديين ، 2008-2009، صفحة 178).

وينتمي أصحاب الكرامة من الصوفية إلى الشرائح البسيطة من المجتمع، استطاعت استقطاب فئات كثيرة من المجتمع، والظاهرة الكرامية جعلت المجتمع يفر من واقع أفرز ظروف تاريخية صعبة ألقت بضلالها على مناحي عدة اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية (خفاجي، 1977، صفحة 177).

خصص ابن قنفذ القسنطيني حيزا مهما لموضوع الكرامة في رحلته، وأعطى مفاهيم للكرامة وكذا لصاحب الكرامة، ودعم ذلك بضرب أمثلة لنماذج من الأولياء والمشايخ الذين ظهرت على أيديهم جملة من الكرامات أمثال أبي مدين وشيخ أبي مدين ابي يعزى وغيرهم، الذين ساق لهم حديثا طويلا حول ما أُعطوا من الخوارق وما ظهر على أيديهم من الكرامات. والملاحظ عن ابن قنفذ انه لا يظهر كولي أو شيخ لطريقة، بل يضع نفسه في صف المريد السالك لطريق المشايخ الباحث عن بركاتهم بسلوك طريقهم وزيارة قبورهم وأضرحتهم يقول ابن قنفذ وهو يصف قبر أبي مدين: " قبر الشيخ أبي مدين رضي الله عنه بالعباد معهود مشهور، وحوض للزائرين، رأيت من قبور الأولياء كثيرا من تونس الى مغرب الشمس ومنتهى بلد آسفي فما رأيت أنور من قبره ولا أشرق ولا أطهر من سره وليس الخبر كالعيان والدعاء عنده مستجاب " (القسنطيني، 1965، صفحة 107).

3.5-نظرات في تصوف الثعالبي:

1.3.5-عصر الثعالبي:

عاش عبد الرحمان الثعالبي خلال القرن التاسع الهجري، الذي يعتبر من أزهى القرون من حيث النشاط العلمي والفكري في المغرب الأوسط، وقد جمع الامام الثعالبي بين الإنتاج العلمي الغزير في شتى

فنون العلم ،وبين السلوك الصوفي السني الصحيح الذي يستمد أفكاره من نصوص القرآن الكريم والسنة (صحراوي، 2018، صفحة 172).

تميز عصر الثعالبي بكثرة الفتن السياسية والصراع على السلطة في المغرب الأوسط، وتميز أيضا بظهور الكثير من الانحرافات العقلية وكثرة المبتدعة والطرقية ،إضافة الى الانحلال الخلقي الذي أصاب المجتمع، وظهور حياة الترف والمجون، خاصة في بعض المناطق التي استقبلت الهجرات الأندلسية؛ حيث نقل الأندلسيون صورا للفساد المجتمعي الذي كان في الأندلس في بلادهم إلى بلاد المغرب (صحراوي، 2018، صفحة 172) ضف الى ذلك الأوضاع المزرية في البلاد وذلك نتيجة التعارك السياسي الداخلي من أجل السيطرة على السلطة من جهة، ومن جهة ثانية كثرة الحملات الصليبية وحروب الاسترداد من طرف الإسبان، التي وصلت إلى الكثير من المدن الساحلية مثل القل ودلس عام 799 هـ، حيث كان عبد الرحمان الثعالبي حاضرا في هذه الوقائع ومشاركا في الجهاد ضد الصليبين بنفسه (ميمون، 1981، صفحة 335). وساهم الثعالبي في الدعوة الى الجهاد والاستعداد له، ودعا إلى أخذ الحيطة والحذر من أعداء الملة والدين، ويؤكد ذلك الرسالة التي بعث بها الإمام الثعالبي إلى تلميذ من تلاميذه في بجاية يحثه فيها على ايقاظ الهمم وشحذ النفوس لملاقاة العدو الغازي من بني الأصفر ومن ولاهم من النصارى والمجوس (سعدالله أ.، 1991، صفحة 208). هذا الواقع جعل الثعالبي بعدها يجمع الى التصوف والانعزال عن واقع الانحلال وسلوك طريق الرياضة الروحية وتوجيه نظره التأليفي إلى الجمع بين الحقيقة التي هي التصوف والشريعة التي تهتم بالأحكام الفقهية سالكا بذلك طريق أسلافه كالغزالي والجنيد وغيرهم. (قسوم، 1978، الصفحات 60-62).

قضى الإمام الثعالبي سنوات عمره بين الوعظ والتدريس والتأليف، سعى من خلال ذلك الى نشر أفكاره ومشروعه الحضاري من خلال فلسفة تربوية تأسست على المزاوجة بين الشريعة التي تعين العبد على

الإعمار الصحيح في الدار الدنيا، وبين الحقيقة التي هي الزهد والتصوف والتي تأخذ بالعبد إلى العمل للدار الآخرة، وقد أشار الى رؤيته هذه في عدة مواطن من مؤلفاته، منها قوله: "وإعلم أيها الأخ أن من فهم كلام ربه ورزق التوفيق لم ينخدع بغرور الدنيا وزخرفها الفاني " (الثعالبي، 1985، صفحة 211).

2.3.5-تصوف الثعالبي:

تعتبر العلاقة بين الشريعة والحقيقة من أهم المشكلات التي تقف في طريق المتصوفة، ذلك أن الشريعة التي تُعنى بالأحكام الفقهية الظاهرة هي أعم وتشمل الجميع، بينما الحقيقة تُعنى بالتصوف ومقاماته وأحواله هي موقوفة على الخواص.لذا فالعبء الكبير والمهام التي على الصوفية هي أثقل من التي على العوام، لأن الصوفي عليه ما على العوام وما على الخواص معا. فالقيام بالأعمال الظاهرة في عبادة الصلاة من شروط وأركان وواجبات ونحوها من الأمور التي نجدها أيضا في رمضان والتي هي حديث الفقهاء، يجسد جانب الشريعة، أما الخشوع وحضور القلب مع الله عز وجل الذي هو روح الصلاة يمثل جانب الحقيقة (قسوم، 1978، الصفحات 72-73).

وعند النظر في شخصية الإمام الثعالبي يتبين أنه جمع بين الشريعة والحقيقة، ويظهر هذا التوازن بينهما جليا في مؤلفاته المختلفة خاصة عندما يذكر باب فضل العلم وفضل الدعاء والذكر وفضل القرآن، مثل كتاب :"رياض الصالحين" و"التقاط الدرر " و"العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة " و"الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة" و"قطب العارفين " و"حقائق التصوف"، وقد نبه الإمام سالكي طريق الآخرة إلى ضرورة التزود بالعلم الشرعي، مخالفا بتوجيهه هذا ما كان سائدا بين الكثير ممن ينتسبون إلى التصوف والصوفية ويرون أن العلم حجاب، فلهذا قال الإمام الثعالبي: "... وأما اليوم في زماننا هذا... فلا ينبغي أن يختلف في أن الاشتغال بالعلم النافع أفضل لقلة العلماء وزهد الناس في العلم " (الجيلالي، 1994، صفحة 249) ويضيف حول فضل العلم وأهميته للسالك فينبه كل مريد أن لا يغتر بالرجل الذي أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء حتى ينظر إلى الأمر والنهي وحفظ الحدود والشريعة

(قسوم، 1978، صفحة 74). فالثعالبي أدرك العلاقة بين الشريعة والحقيقة وأن كل واحد منهما مكمل للآخر، فهما صنوان لا ينفصلان عن بعضهما البعض.

3.3.5-التصوف السني عند الثعالبي:

1.3.3.5-مصادر التصوف عند الثعالبي:

عندما نتأمل في المصادر التي يستقي منها الإمام الثعالبي لسلوك طريق التصوف، وما دونه حول الزهد والتصوف في مختلف مؤلفاته نجد أن تصوفه يجنح إلى ما يعرف بالتصوف السني ، ومن أهم مصادر التصوف عند الثعالبي التي كان لها التأثير البارز في تحديد منحاه الصوفي نجد مجموعة من كبار المتصوفة السنيين، وفي مقدمتهم أبو حامد الغزالي(ت505 هـ / 1111 م) وقبله القشيري (ت 456هـ / 1073م) والحارث بن أسد المحاسبي (ت 243 هـ / 863م) وأبو الحسن الشاذلي (ت656 هـ / 1258 م) وأبي مدين الغوث (ت549هـ / 1197 م) وعبد الحق الإشبيلي (ت631 هـ / 1233م) وغيرهم من المتصوفة السُنيين (الثعالبي، 1985، الصفحات 6-9).

وعند التوقف عند أهم مصدر لتصوف الثعالبي وهو أبو حامد الغزالي نجد أن الإمام الثعالبي تشبع من فكر الغزالي من خلال جده المتصوف مخلوف بصورة خاصة، وأسرته ومحيطه الذي تربى فيه والذي كان متأثرا بالغزالي ومؤلفاته بصورة عامة (المديوني، 1986، صفحة 36).

وقد صرح الثعالبي بنفسه في أكثر من موضع من مؤلفاته بتأثره بالغزالي وبكتابه الإحياء وأنه أخذ منه واستفاد من محتواه خاصة في كتابه "الجواهر الحسان "وكذا كتابه " العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة " الذي استوحاه من كتاب الغزالي "الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة " وأخذ أيضا من " مشكاة الأنوار " للغزالي فكتب الثعالبي " الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة " (قسوم، 1978، صفحة 57).

2.3.3.5– منهج الثعالبي في التصوف:

سار الثعالبي في تصوفه على نهج معظم المتصوفة، إذ اتخذ من الزهد والورع والتنسك مسلكا لبلوغ غايته. وكان تصوفه يقوم على التوفيق بين الشريعة والحقيقة، والدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة، ونبذ حياة الترف والانغماس في الملذات، وجعل للأخلاق حيزا هاما في طريق السالكين، إذ اعتبر الأخلاق جزءا محوريا في تدين المسلمين، سواء ما تعلق منها بالقلوب أو الأقوال أو الأفعال، وهي التي يعتبرها أخلاقا اجتماعية، إضافة إلى الأخلاق النفسية، وهي كل ما يتصل بالرجاء والخوف والمحبة والصبر والشكر وغيرها (قسوم، 1978، صفحة 75).

3.3.3.5– الثعالبي والتصوف السني:

من خلال المصادر التي اعتمد عليها الثعالبي في تصوفه، لا توجد إشارة واضحة إلى أخذه طريقة صوفية ما على أحد رغم شيوع هذا الأمر في عصره، وبالمقابل لا يوجد ما يثبت انفراده بطريقة وتلقينها لاتباعه، بل الثابت أنه كرس جزءا كبيرا من حياته لنشر العلم والأخلاق بين الناس، فتلاميذه كالسنوسي التلمساني (ت895 هـ / 1489 م) والمغيلي (ت909 هـ / 1503 م) وأحمد زروق (ت 899 هـ / 1493 م) أخذوا عن شيخهم الثعالبي العلم دون الطريقة، ولا أدل على ذلك من السنوسي التلمساني وأخوه لأم علي التالوتي (توفيا 895 هـ / 1489 م) اللذان بعد أن قرءا على الثعالبي الصحيحين وغيرهما من الكتب وأجازهما (الملالي، د.ت، صفحة 22). اتجها غربا إلى وهران لأخذ الطريقة على العلامة إبراهيم التازي (ت866 هـ / 1461 م)، فأخذا العلم عن الإمام الثعالبي والطريقة عن غيره (الملالي، د.ت، صفحة 15).

4.3.3.5– الكرامة والولاية عند الثعالبي:

تعتبر الحكاية الكرامية نص نثري يروي موضوعا أو عددا من الموضاعتا لفعل خارق للعادة ظهر على يد عبد صالح في دينه منصاعا لأوامر الله ونواهيه في جميع أحواله من غير تنبؤ، أو بعبارة أخرى هي نصوص أدبية تحمل صورة القصص القصيرة التي عادة ما تسوق قصة لصوفي في موضوعات قدرته الخارقة

على شفاء مختلف الأمراض والمشي فوق الماء أو الطيران في الهواء وطي الأرض بالمشي وتحقيق أماني الناس واستجلاب الأمطار وقت الجفاف وغيرها (بونابي، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، 2000، صفحة 170).

والثعالبي بتصوفه السني المبني على الكتاب والسنة ينظر إلى الكرامة والولاية بمنظور مخالف لمبالغة المتصوفة في هذا الباب؛ فهو يضبط الأمر بضابط نص الوحي بشقيه القرآن الكريم والسنة، فمثلا مفهوم الولاية عنده مفهوم قرآني مبني عل نص من كتاب الله عز وجل ومن أحاديث صحيحة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم تضبط معنى الولاية، والأمر نفسه بالنسبة للكرامة (الثعالبي، 1985، الصفحات 10-12).

4.3.5- تأثير الثعالبي في ميدان التصوف:

أثر عبد الرحمان الثعالبي تأثيرا واضحا في ميدان الزهد والتصوف سواءا عن طريق تلاميذه، أو عن طريق كتبه، أو عن طريق زاويته التي بنيت عند ضريحه. فأما تلاميذه فهم كثر ومنهم كبراء علماء عصرهم كالسنوسي التلمساني ومحمد ابن مرزوق الكفيف (ت 901هـ / 1495م) ومحمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909 هـ / 1503 م) وغيرهم كثير، وقد كان لشخصية الثعالبي العلمية الجذابة وكذا موسوعيته أثر بارز في استقطاب أكبر عدد من الطلبة وتخريج عدد كبير من العلماء الذين قصدوا مجالسه العلمية من شتى مناطق المغرب الأوسط وحتى خارجه، وهذا ما جعل التأثير الصوفي للثعالبي يصل إلى قسنطينة وبجاية وتلمسان وحتى إلى ليبيا (سعدالله أ.، 1998، الصفحات 92-93).

وأما كتبه فيعد الثعالبي من المكثرين في التآليف إذ ناهز عدد كتبه التسعين كتاب في شتى أنواع العلوم، وبارك الله في علمه فنسخت الكثير من كتبه ونشرت، وتم تداولها ونقل أفكاره المبثوثة في كتبه من

خلال تلامذته، فكانت مؤلفاته مصدرا للمريدين، خاصة كتب الزهد والتصوف منها (سعدالله أ.، 1998، صفحة 93).

وأما زاويته التي أقيمت عند ضريحه، فقد غدت مقصدا للناس للبركة والشفاء للزوار وهي أيضا ملتقى الطلاب.

وهكذا أصبحت الثعالبية تدل على مدرسة في الزهد والتصوف السني، فعندما يُذكر اسم الثعالبي إلا ويقترن اسمع بطريق التصوف والعارف بالله تعالى (سعدالله أ.، 1998، صفحة 93).

6–خاتمة:

من خلال ما تم تناوله في ثنايا هذه الدراسة حول التصوف في المغرب الأوسط واسهامات العلماء المتصوفة العلمية، وانتخاب ابن قنفذ القسنطيني وعبد الرحمان الثعالبي كنماذج، يمكن استخلاص جملة من النتائج هي:

– أن التصوف لم يظهر في البداية كعلم مستقل وطريق متبعة في بلاد المغرب، بل المنطلق كان بالزهد الذي تسلل من المشرق إلى الغرب الإسلامي من خلال الزهاد المشارقة الوافدين على المغرب أو المغاربة الذين عادوا من المشرق.

– أن الظهور الجلي للتصوف في المغرب الأوسط كان في بداية القرن السادس للهجرة على يد أبي مدين شعيب.

– كان التواجد الصوفي على مستوى ضيق في البداية، سواء من ناحية المجال الجغرافي أو الفئة المعتنقة له.

– مع العهد الموحدي بدأ التصوف في التوسع، وخلال العهد الزياني عرف التصوف انتشارا كبيرا في أغلب مناطق المغرب الأوسط واعتنقه الخاصة والعامة.

– ساهمت العديد من العوامل السياسة والاجتماعية والفكرية في انتشار التصوف في المغرب الأوسط.

– ظهور الفقهاء المتصوفة والعلماء المتصوفة أخرج التصوف من بوتقة التبعية للمشرق والانقياد لتعاليم ما دوّنه المشارقة، إلى التحرر والتأليف الصوفي.

– ساهم هؤلاء العلماء المتصوفة في اثراء المكتبة العلمية بعدد كبير من المؤلفات في مختلف صنوف العلوم، ومن بينها تصانيف في علم التصوف ومن أبرزهم ابن قنفذ القسنطيني وعبد الرحمان الثعالبي.

– كانت الإنتاج العلمي غزيرا عند كل من المتصوفين ابن قنفذ والثعالبي، بِيَد أنَّ الأول مَسَّ إنتاجه معظم العلوم من عقلية ونقلية وأدبية وإنسانية، بينما بينما غلب على تآليف الثاني وهو الثعالبي الطابع الشرعي فكانت غالب كتبه بين الفقه والتفسير والزهد والتصوف.

– رغم تبحر ابن قنفذ في شتى أنواع العلوم وسيره على طريق التصوف، إلاّ أنّه لم يتخذ طريقة لنفسه بل يصرح بأنه من مريدي أبي مدين شعيب، بخلاف الثعالبي الذي لا يظهر عليه سواء من خلال تدريسه أو من خلال مؤلفاته بأنه يتبع طريقة معينة، وفي الوقت نفسه لا يوجد ما يدل على أنّه اتخذ طريقة تخصُّه.

7.قائمة المراجع:

ابن قنفذ أحمد القسنطيني. (1965). *أنس الفقير وعز الحقير*. الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي.

ابن مريم التلمساني. (2014). *البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان*. بيروت–لبنان: دار الكتب العلمية.

ابن مريم المديوني. (1986). *البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

أبو العباس أحمد بن حسين ابن قنفذ. (1968). *الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية*. تونس: الدار التونسية للنشر.

أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الغبريني. (1889). *عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية* (الإصدار 02). بيروت: دار الآفاق الجديدية.

أبو القاسم سعدالله. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي* (المجلد 1). بيروت–لبنان: دار الغرب الإسلامي.

أبو القاسم محمد الحفناوي. (2012). *تعريف الخلف برجال السلف* (المجلد 1). الجزائر: دار كردادة.

أبوالقاسم سعدالله. (1991). *أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر* (الإصدار 3، المجلد 3). لبنان: دار الغرب الإسلامي.

أحمد بابا التنبكتي. (2011). *نيل الإبتهاج بتطريز الدباج*. الجزائر: دار الأبحاث.

أحمد بن محمد المقري. (2011). *أزهار الرياض في أخبار عياض* (المجلد 5). الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع.

أحمد بن محمد المقري. (2011). *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب* (الإصدار طبعة خاصة، المجلد 7). الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع.

أسعد السحمراني. (2015). موسوعة التصوف. 22-30. بيروت، لبنان: دار النفائس.

الطاهر بونابي. (2000). *الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين*. جامعة الجزائر.

الطاهر بونابي. (2008-2009). *الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين 14 - 15 الميلاديين*. قسم التاريخ - جامعة الجزائر: أطروحة دكتوراه.

بن عيسى التجيني. (2011). *معجم أعلام تلمسان*. تلمسان-الجزائر: كنوز للنشر والتوزيع.

جمال علال بختي. (2005). *الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن السابع الهجري دراسة تاريخية وقراءة تحليلية في مواقف ابن خميس السبتي من التصوف والمتصوفة*. مصر: مكتبة الثقافة الدينية .

حركات إبراهيم. (2000). *مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9 هـ / 15 م* (المجلد 3). المغرب: دار الرشاد الحديثة- الدار البيضاء.

رضوان عباس. (جوان، 2016). التصوف بالمغرب الإسلامي. *مجلة الفكر المتوسطي*(11).

زاده طاش كبرى. (1985). *مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم* (المجلد 2). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

سليمان الصيد. (2015). ابن قنفذ القسنطيني حياته وكتابه وسيرة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام. *رسالة المسجد*(13)، صفحة 195.

شمس الدين السخاوي. (د.ت). *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع* (المجلد 4). بيروت-لبنان: دار الجيل.

صالح بن نبيلي فركوس. (2019). *تاريخ الثقافة الجزائرية من العهد الفنيقي إلى غاية الإستقلال 814 ق.م - 1962*. البصائر الجديدة للنشر والتوزيع.

عادل نويهض. (2017). *معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر* (الإصدار 2). الجزائر: دار الوعي.

عبد الحق حميش، وبن ساعد محفوظ بوكراع. (2011). *موسوعة تراجم علماء الجزائر علماء توات وتلمسان* (الإصدار طبعة خاصة). الجزائر: دار زمورة.

عبد الرحمان الجيلالي. (1994). *تاريخ الجزائر العام* (الإصدار 7، المجلد 3). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

عبد الرحمان كريب. (ديسمبر، 2011). النزعة الاجتهادية في المدرسة المالكية التلمسانية خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي "أبوعبدالله محمد المقري وكتابه القواعد ". *كان التاريخية*(14).

عبد الرزاق قسوم. (1978). *عبد الرحمان الثعالبي والتصوف*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر.

عبد العزيز فيلالي. (2012). الصلات الثقافية والفكرية بين قسنطينة وتلمسان. *آفاق وأفكار، 03*.

عبد الغني عيساوي. (2021). *أعلام التفسير في الجزائر المحروسة*. قسنطينة-الجزائر: دار الشافعي للنشر والتوزيع.

عبد المنعم الحسني القاسمي. (2007). *أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى*. المسيلة-الجزائر: دار الخليل القاسمي.

عبدالحكيم مرتاض. (2021). أبو مدين شعيب (ت 589 هـ/1193م) دفين العُبّاد بتلمسان حقائق جديدة حول غياب المعالم الزمنية في سيرته. *قرطاس الدراسات الحضارية والفكرية، 9*(2)، الصفحات 18-26.

عبدالرحمان ابن.خلدون. (2001). *المقدمة*. بيروت، لبنان: دار الفكر.

عبدالرحمان الثعالبي. (1985). *الجواهر الحسان في تفسير القرآن* (المجلد 3). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

عبدالعزيز فيلالي. (2017). *مجمل تاريخ قسنطينة السياسي العمراني الثقافي الاقتصادي*. عين مليلة، الجزائر: دار الهدى.

عبدالقادر صحراوي. (ديسمبر، 2018). عبد الرحمان الثعالبي: الإمام المتصوف في فكر عبد الرزاق قسوم. *الحوار المتوسطي، 9*(2)، صفحة 172.

عبيد بوداود. (2011). قراءة في العلاقة بين صوفية وفقهاء المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين(ق13-15م). *مجلة عصور الجديدة، 01*(01).

علي بن يحي كعبي. (2014). *آراء الشيخ عبد الرحمان الثعالبي الإعتقادية من خلال تفسيره (الجواهر الحسان)*. جامعة أم القرى: كلية الدعوة وأصول الدين.

فافة بكوش. (سبتمبر، 2016). أبو عبد الله المقري التلمساني السيرة والإنتاج الفكري. *مجلة كان التاريخية*(33).

كريم زايدي. (جانفي، 2018). الإمام الثعالبي ومنهجه في تعامله مع القراءات في تفسيره"الجواهر الحسان"-نماذج منتخبة-. *15*(1).

محمد ابن مخلوف. (2003). *شجرة النور الزكية في طبقات المالكية* (المجلد 1). بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.

محمد بن عمر الملالي. (د.ت). *المواهب القدسية في المناقب السنوسية6253*. تونس: دار الكتب الوطنية.

محمد بن ميمون. (1981). *التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

محمد بوشقيف. (2010 - 2011 م). تطور العلوم للمغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14 / 15 م). أطروحة دكتوراه قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.

محمد عبد المنعم خفاجي. (1977). *الأدب في التراث الصوفي*. مصر: مكتبة غريب.

محمد قويسم. (2013-2014). *مدينة قسنطينة مابين القرنين (7 - 10 هـ / 13 - 16 م) دراسة سياسية، وعمرانية، واجتماعية، وثقافية*. قسم التاريخ-جامعة الجزائر 2: أطروحة دكتوراه .

محمد مفتاح. (2014). *الخطاب الصوفي في الغرب الإسلامي- مقاربات وظيفية*. القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع.

يحي بوعزيز. (2009). *أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة* (الإصدار طبعة خاصة). الجزائر: دار البصائر.

يحيى هويدي. (1965). *تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، الجزء الأول في الشمال الإفريقي*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.